المثـــــقف و السلطة

ألكسيس دي توكفيل و شرعنتِه للسيطرة و الإستيطان فـي الجزائر من خلال ثلاثة وثائق.

د.رزيق محمد

كلية العلوم السياسية – جامعة الجزائر 3

الملخص :

تتعرض هذه الدراسة الموسومة بـ ":**المثـقف و السلطة : ألكسيسدي توكفيل وشرعنتِه للسيطرة و الإستيطان في الجزائر من خلال ثلاثة وثائق.** إلى مساهمات ألكسيس دي توكفيل المثقف والمنظر والمفكر الفرنسي ذائع الصيت صاحب كتاب" عن الديمقراطية في أمريكا " أين انتصر فيه للحرية ضد الإستبداد، و للنظم العادلة ضد النظم الظالمة) في أوروبا وأمريكا .(أما في الجزائر فقد ساهم في النقاش السياسي بعد الإحتلال عام1830 ، و ذلك من خلال ثلاثة وثائق و هي:

- **الرسالة الثانية عن الجزائر** 1837 والتي نشرت في 22 أوت).1837 ُوضعت بعد توقيع معاهدة التافنة بين الأمير عبد القادر والجنرال بيجو)

-**عمل عن الجزائر** في أكتوبر)1841بعد تجدد القتال مع الأمير عبد القادر ابتداء من نوفمبر(1839

- **تقرير عن الجزائر** 1847(الذي صاغه باعتباره نائبا في الجمعية الوطنية الفرنسية(البرلمانٍ)في إطار أشغال اللجنة البرلمانية حول الجزائر)

تمثل هذه الكتاباتعُصارة الفكر التوكفيلي حول الجزائر، ذلك أنه ضّمن هذه الكتابات وجهة نظره حول ما يجب تطبيقه من سياسات في الجزائر بهدف فرض **السيطرة التامة** وتحقيق **التهدئة الكاملة** و إنجاح عملية **الإستيطان** والإستيلاء على الممتلكات والأراضي بهدف تغيير المعادلة الإقتصادية والإجتماعية والسياسية في الجزائر، حيث ورد في هذه الكتابات الكثير من الرؤى ووجهات النظر التي تدعو السلطات الإستعمارية إلىتبنّيها بهدف تحقيق النصر بأقل التكاليف .

لعب ألكسيس دي توكفيل دورا كبيرا في **شرعَنة** الإحتلال الفرنسي للجزائر، بل إنه ادعى أن السيطرة لا تعني شيئا وسوف تظل ناقصة مالم تدعم بالإستيطان الذي تفنّن في شرح خطواته وكيفية تحقيقه خاصة في" عمل عن الجزائر1841 "، و"تقريرعن الجزائر 1847 "بقسميه الأول والثاني حتى ولو أدى ذلك إلى استخدام أقسى الوسائل و الأساليب، إذ لا يهم ذلك ما دام أن الهدف أو الغايةبرّ ر الوسيلة.

Résumé :

Cette étude exposée "l'intellectuel et le pouvoir: Alexis de Tocqueville apôtre de la démocratie en Europe et en Amérique et prêcheur de la domination et la colonisation en Algérie, à travers trois documents justificatifs."

Les contributions d'Alexis de Tocqueville ; l'intellectuel et le théoricien, auteur renommé du livre "De La Démocratie en Amérique" où il prêcher la liberté contre la tyrannie, et la justice contre la tyrannie (en Europe et en Amérique). En Algérie, il a contribué au débat politique après l'occupation en 1830, et à travers trois documents :

– La deuxième lettre de l'Algérie en 1837, qui a été publié le 22 Août 1837. (développé après la signature du traité TAFNA entre l'Emir ABDELKADER et le général BUGEAUD.)

- **Travail sur l'Algérie** en Octobre **1841** (après la reprise des combats avec l'Emir Abdelkader à partir de Novembre 1839).

- **Rapport sur l'Algérie en 1847** (rédigé en tant que député à l'Assemblée nationale française (parlement) dans le cadre des travaux de la commission parlementaire sur l'Algérie).

Ces écrits représentent la synthèse de la pensée de Tocqueville sur l'Algérie, ou il préconise ce qui devrait être appliquée en Algérie afin d'imposer un contrôle complet et atteindre la pleine trêve et où il suggère dans ces écrits beaucoup d'idées et perspectives tel que la saisie de biens et de l'exploitation des terres afin de changer l'équation économique, sociale et politique en Algérie, et appelle les autorités coloniales à adopter pour parvenir à la victoire au meilleur coût

Alexis de Tocqueville a joué un rôle majeur dans la légitimation de la domination et de la colonisation de « l'Algérie française », mais il a affirmé que le contrôle ne signifie rien et restera incomplet s'il ne prend pas en charge la colonisation totale de l'Algérie,ce qui conduit implicitement à l'utilisation des moyens et des méthodes les plus difficiles, car il n'a pas « la fin justifie les moyens. »

مقدمة :

إن سياسات الدول واستراتيجياتها هي وليدة الأفكار والنظريات والمقاربات التييضطلع بها **المثقف والمفكر والفيلسوف و رجل الدين**... نظرا لما يتمتع بهؤلاء من بُعد نظر ونفوذ معنوي على المجتمعات والحكومات مما جعل البعض يرى أنه" : **على الشرعيات الفكرية أن تتقدم الشرعيات السياسية والإقتصادية وأنتؤسسها** (1)"في حين رأى البعض أن الأفكار لم تعبّد الطريق للإستعمار الغربي فحسب ، بل أعطته مسّوغا ووازعا نفسيا وحضاريا و سياسيا وأخلاقيا [2]وأن المثقفون والمستشرقون)في معظمهم (هم الذين أسسوا المعرفة التصورية الأوروبية عن المسلمين في عهد الإستعمار . وأعطوا غطاء فلسفيا وأخلاقيا للتوجه الغربي المعلن نحو الشرق ، وشاركوا فياستراتيجية السيطرة عليه .[3]و أنه بحسب إدوارد سعيد فإنه": **لولا الكلمات ما كانت الأفعال** [4]"وأن هناك ارتباطا و تعاونا وثيقين بين الدراسة العلمية والغزو العسكري الإستعماري المباشر .[5]وهذا ما ذهب إليه إيمي سيزرعندما وجّه اتهاما شاملا للإيديولوجية الإستعمارية موضحا أن هذه الإيديولوجية لم تقتصر على عتاة العسكريين والإداريين، بل شملت الباحثين والفلاسفة الأوروبيين أنفسهم الذين أسهموا مباشرة في الفكرة القائلة بأن الملّونين يستحقون العقاب والإضطهاد لأنهم أقل حضارة من الأوروبيين.[6]

انطلاقا مما سبق سوف نتعرض لأحد المنظرين والموجهين لمهمين الكبار للمدرسة الكولونيالية الفرنسية في الجزائر ألا و هو:

-**ألكسيس دي توكفيل (1805 – 1859)** الذي يعتبر أحد أهم المنظرين والمفكرين السياسيين الذين عرفتهم فرنسا في القرن19 ، من خلال مؤلفاته العديدة والمتنوعة التي اهتمت بتحليل الثورة الفرنسية والديمقراطيات في أمريكا والديمقراطيات الغربية بصفة إجمالية .من أشهر مؤلفاته" : **عن الديمقراطية في أمريكا** De la démocratie en Amérique "،" **العهد القديم والثورة**... L'ancien régime et la révolution "

-فما هي أهم الأعمال التي أنجزها توكفيل بخصوص الجزائر؟ و ما هو مضمونها؟

–كيف ساهم توكفيل في ترسيخ أسس و دعائم المدرسة الكولونيالية في الجزائر؟ و لماذا تحوّل من داعية إلى الديمقراطية في أمريكا إلى داعية للسيطرة والاحتلال في الجزائر؟

ينتمي توكفيل إلى أسرة أرستقراطية تنحدر من إقليم النورماندي. نشأ على تربية مسيحية، كان لأمّه وللأب لوسيور l'abbé Lesueur[7] الأثر الكبير في ذلك، إضافة إلى تكوينه القانوني وتأثره بالمدارس الفكرية السائدة يومئذ في فرنسا و أوروبا والتي تصب جميعها في بوتقة التفوق الأوروبي المسيحي على بقية أنحاء العالم وضرورة تفكيك الدولة العثمانية وتصفية ممتلكاتها في أوروبا وهو ما اصطلح على تسميته أوروبيا " **بالمسألة الشرقية** ، واعتبار الجزائر جزءا من الدولة العثمانية.

صبّ توكفيل كل معارفه وعقيدته السياسية والدينية على الجزائر باعتبار **فرنسا الدولة المتحضّرة** والشعب الفرنسي شعب متحضّر أما الجزائريون فقد وصفهم **بالبربر والمتوحشين barbares et sauvages** والكثير من المصطلحات التي سنعود إليها في إطار الأدبيات التي استخدمها في أعماله حول الجزائر.

ففي كتابه" **عن الديمقراطية في أمريكا** "انتصر فيه للحرية ضد الاستبداد ، كما ساند " النظم العادلة " ضد " النظم الظالمة .[8]" إلاّ أن توكفيل صديق **جوزيف آرثرغوبينو– 1816**) (**1882** صاحب كتاب :**دراسة في التفاوت بين الأعراق** Essai sur l'inégalité des races humaines (1853- 1855)الذي يعتبر **إنجيلا لكل العنصريين والفاشيين في أوروبا** من خلال ما طرحه من أفكاره ومبادئ و طروحات عنصرية، وصديق الجنرال **كافينياك**) سفاح الجزائر (الذي ناصره ليتولى الرئاسة عام1852 ، قد كتب حول الجزائر ما يلي:

–**الرسالة الثانية عن الجزائر**1837 ، والتي نشرت في 22أوت).1837 ُوضعت بعد توقيع معاهدة التافنة بين الأمير عبد القادر و الجنرال بيجو.

–**عمل عن الجزائر** في أكتوبر)1841بعد تجدد القتال مع الأمير عبد القادر ابتداء من نوفمبر.(1839

– **تقرير عن الجزائر**[9] 1847،) الذي صاغه باعتباره نائبا في الجمعية الوطنية الفرنسية) البرلمان (في إطار أشغال اللجنة البرلمانية حول الجزائر.

تمثلهذه الكتابات عُصارة الفكر التوكفيلي حول الجزائر، ذلك أنه ضّمن هذه الكتابات وجهة نظره حول ما يجب تطبيقه من سياسات في الجزائر بهدف فرض **السيطرة التامة** وتحقيق **التهدئة الكاملة** و إنجاح عملية **الاستيطان** والاستيلاء على الممتلكات والأراضي بهدف تغيير المعادلة الاقتصادية

والاجتماعية والسياسية في الجزائر، حيث ورد في هذه الكتابات الكثير من الرؤى ووجهات النظر التي تدعو السلطات الاستعمارية إلى تبنّيها بهدف تحقيق النصر بأقل التكاليف.

يمكن تتبع فكر ألكسيس ومحاولاته التنظيرية من خلال ما كتبه عن الجزائر سواء كنائب في الجمعية الوطنية الفرنسية) البرلمان (أو كناصح أمين للحكومات الفرنسية المتعاقبة، من خلال رسائله المفتوحة، أو تدوين يومياته التي كتبها بعد قدومه إلى الجزائر عام 1841و 1846 وسوف نركز هنا على ثلاثة وثائق أساسية و هي:

1- الوثيقة الأولى ":الرسالة الثانية عن الجزائر:1837 "

وهي من بواكير أعماله حول الجزائر جاءت في شكل رسالة مفتوحة نشرت عام1837 ، وهي السنة التي ترشح فيها توكفيل للانتخابات التشريعية . وبالتالي فإن هذه الرسالة هي مساهمة توكفيل في النقاش السياسي الدائر يومئذ في فرنسا وفي الوقت نفسه نصا دعائيا كان الغرض منه إظهار معرفته الدقيقة بالشأن الجزائري وسعة إطلاعه عليه .علما أن هذه الرسالة قد سبقها رسالة أولى لخص فيها توكفيل مراحل التاريخ الجزائري.[10]

-أهم الأفكار التي وردت في رسالته الثانية عن الجزائر عام 1837 هي:

-أن فرنسا بعد احتلالها للجزائر عام1830 ، سعت لمحو آثار الأتراك العثمانيين في الجزائر من خلال حرق و تمزيق الأرشيف والوثائق الإدارية " :وحتى نزيل بشكل جيد آثار حكم العدو، اهتممنا قبل ذلك بتمزيق أو بحرق كل الوثائق المكتوبة والسجلات الإدارية، وكل القطع الأصلية وغيرها مما كان بإمكانها تخليد أثر ما أُنجز قبلنا [11]"وهذا ما يتطابق مع شهادة الضابط الفرنسي بيليسيي دو رينو Pellissier de Reynaud في كتابه" **حوليات جزائرية** "الذي روى فيه – وهو شاهد عيان – أن الإدارة المدنية الفرنسية التي أسندت للسيد دونيي Denniée وهو المقتصد العام للجيش الفرنسي تحت إمرة الجنرال بورمون) قائد الحملة الفرنسية على الجزائر (قد قامت بأخذ و تهريب تقريبا كل الدفاتر والوثائق الهامة للجزائر[12]، بل إن هذا الضابط يروي أنه شاهد جنودا يشعلون غليوناتهم بوثائق الحكومة الجزائرية المبعثرة على الأرض هنا وهناك ليقرر بعد ذلك":[13]**أنه أبدا لم يحدث أن تمت عملية احتلال بنفس الفوضى كما حدث في الجزائر، حتى في القرون الأكثر بربرية** .[14]"حيث قارن في النهاية بين جيش الاحتلال الفرنسي للجزائر عام 1830 وجيش الوندال الذين احتلوا روما.[15]

ملاحظة :إذا كان توكفيل قد أكّد على اتلاف الوثائق المكتوبة والسجلات الإدارية العائدة للجزائر خلال العهد العثماني من خلال التمزيق والحرق، فإن بيليسيي دو رينووهو ضابط شارك في الحملة الفرنسية على الجزائر وبالتالي شاهد عيان من موقعه كضابط يقول أن الإدارة المدنية الفرنسية بالجزائر قد

قامت بتهريب كل الدفاتر و الوثائق الهامة للجزائر، وهذا يعني أن أرشيف الجزائر لفترة ما قبل 1830 يوجد في فرنسا عكس ما أورده توكفيل و القاضي بأن الأرشيف قد أتلف.

وعليه فإن الإدارة الفرنسية التي لا تجهل قيمة الوثائق والسجلات والدفاتر قد أخذت هذه الثروة وهربتها نحو فرنسا للاستفادة منها في معرفة طريقة و كيفية تسيير الشؤون الإدارية و التجارية للجزائر وهذا ما سوف تعتمد عليه لاحقا في رسم السياسة الإدارية للجزائر حيث أنها سوف تقوم بإبقاء بعض النظم الإدارية مع إدخال بعض التعديلات و الإضافات التي تتماشى ومصلحتها العامة.

– يرى توكفيل أن الجزائر يسكنها **عرقين** كبيرين و هما القبائل و العرب .و أنه إذا كانت بلاد القبائل لم تُحتل بعد وهي بالتالي مغلقة أمام فرنسا "**إلا أن أرواحهم مفتوحة لنا وليس مستحيلا علينا دخولها** .[16]" و " أن القبائل يمنعوننا من دخول بلادهم أكثر مما يفعل العرب إلا أنهم يظهرون أقل منهم ميلا بكثير إلى محاربتنا .[17]"وعليه فهو يرى أن على فرنسا أن تركز في تعاملها مع العنصرين على مايلي:

أ – مع القبائل ينبغي الاهتمام خصوصا بقضايا العدالة المدنية والتجارية.

ب **–** مع العرب ينبغي الاهتمام بالقضايا السياسية والدينية.[18]

وواضح من خلال هذه النصيحة التي يقدمها توكفيل للحكومة الفرنسية هو اللّعب على وتيرة **الانقسام العرقي** والتعامل مع العنصرين من منطلقات مختلفة على أساس أن الأول) **القبائل** " (**أرواحهم مفتوحة لنا** " في حين أن الثاني) **العرب** " (**أكثر تعقيدا وصعوبة** " وبالتالي فيجب على فرنسا أن تكون لها سياسة خاصة بالقبائل وأخرى بالعرب وهذا ما يعني اتباع " **قاعدة فرق تسد** " من جهة، لأنه حسب توكفيل لا يجب لهذه العناصر أن تتحد وتشكل حكومة واحدة [19] لأن ذلك سيكون فيه خطرا على الوجود الفرنسي، كما يجب على فرنسا أن تمنع أي محاولة اصطفاف ضدها في الجزائر.

ثم إن توكفيل من خلال هذا الطرح يكون قد ساهم مع مجموعة أخرى من المفكرين والمنظرين الفرنسيين في بلورة نظرة فرنسا نحو هذين العنصرين "القبائل" و"العرب :"نظرة ايجابية للعنصر الأول، ونظرة سلبية للعنصر الثاني، بناء على الاختلافات السوسيولوجية والدينية بينهما .وقد كان ذلك مقدمة لبلورة فرنسا **لسياستها" القبائلية "بالجزائر** منذ البدايات الأولى للاحتلال ذلك أن هدفها كما سيتضح لاحقا هو تحقيق سياسة الإدماج مع القبائل باعتبارهم أكثر العناصر قابلية وذوبانا "إن مصلحتنا تفرض علينا أن نبادر إلى إدماجهم[20] "، أما هدفها على المدى البعيد فقد كان إذكاء نار العداوة والشقاق بينهما من خلال سياسة فظيعة تقوم على مبدأ الاستغلال المنهجي للعداوة التي تفّرق بين العرب والقبائل، والسعي إلى إدماج القبائل والقضاء على العرب[21]، إذ أن الغاية كانت إضعاف الجزائريين تمهيدا لابتلاعهم جميعا،وذلك نظرا لشدة المقاومة التي لقيتها من الجزائريين بمختلف عناصرهم.

2-الوثيقة الثانية":عمل عن الجزائر:1841 "

إذا كانت رسالة توكفيل الثانية عن الجزائر عام 1837 قد وُضعت بعد توقيع معاهدة التافنة بين الأمير عبد القادر **أميرا للمؤمنين** وسيدا على ثلاثة أرباع الجزائر نظرا للسياسة التي انتهجها في تجسيد مشروعه الوطني القاضي بتوحيد البلاد من جهة واستتباب الأمن ومحاربة كل معتد على أرض البلاد .[22]فإن" عملا عن الجزائر "قد وضعه عام 1841وذلك بعد تجدد القتال بين الأمير عبد القادر وفرنسا بعد أن خرقت هذه الأخيرة معاهدة التافنة باجتياز الدوق دورليان إبن الملك لويس فليب والجنرال فالي الحاكم العام للجزائر أبواب الحديد في نوفمبر [23]1839، وقد كان ذلك خرقا فاضحا للمعاهدة.

و عليه فإن أسلوب الرسالة الثانية عن الجزائر 1837يختلف عن أسلوب عمل عن الجزائر 1841من حيث:

- حث توكفيل فرنسا على عدم التفكير جديا في مغادرة الجزائر باعتبار أن ذلك سيلحق بفرنسا مساوئ أمام منافستها بريطانيا وأن ذلك سيظهر فرنسا في العالم أنها انحنت أمام عجزها لقلة شجاعتها .[24] لذا فقد سعى من خلال هذا العمل لتوضيح وتبيان إيجابيات الاحتفاظ بالجزائر وعدم مغادرتها إذ " أنه لو استطعنا الوصول إلى السيطرة بإحكام على شاطئ إفريقيا هذا وامتلكناه بيسر، فإن تأثيرنا في الشؤون العامة للعالم سيكون أكثر قوة و انتشارا [25]"وأن ذلك سيزيد بلا شك في قوة فرنسا.

-أنه دعا إلى احتلال الجزائر واستيطانها عن طريق الغزو **واستخدام القوة** في سبيل تحقيق ذلك .حيث قام بتوضيح و شرح هذه الفكرة الداعية إلى الاحتلال والاستيطان محذرا من ترك العرب وشأنهم "إن تركنا العرب لأنفسهم، وتركناهم يتشكلون في قوة منتظمة في مؤخرتنا، فلا مستقبل إطلاقا لمبادرتنا في إفريقيا ."[26] و قد حذر في هذا الإطار من الأمير عبد القادر الذي قال فيه" :هو بطبيعة الحال **عقل من أندر أنواع العقول وأخطرها** ."[27] ينبغي عدم تركه يكمل مشروعه.

ولكي تحقق فرنسا أمنها بحسب توكفيل فلا بد "من إبقاء كل الموانئ في قبضتنا، وإبقاء الشاطئ كله تحت مراقبتنا .وإذا تركنا أية نقطة مهمة منه بين أيدي العرب فذلك يعني تهيئة مكان آمن وملجأ لأول قوة مسيحية سندخل في حرب معها .[28]وهذا ما يعني السيطرة التامة على التجارة الخارجية وقد كانت هذه القضية إحدى أهم نقاط الخلاف بين فرنسا والأمير عبد القادر بعد توقيع معاهدة دو ميشال في1834 ، المادة الرابعة "حرية التجارة ستكون كاملة و شاملة[29]"، و هذا ما جعل فرنسا تعيد النظر بخصوص حرية التجارة في معاهدة التافنة الموقعة عام1837 ، حيث نص الشرط الثالث عشر منها" :الأمير يلزم نفسه أن لا يسلم من مراسي البلاد لجنس من الأجناس إلا بإذن فرنسا.[30]"

معلوم أن فرنسا التي وقعت معاهدة التافنة مع الأمير عبد القادر وصادق عليها الملك لويس فليب أصبحت بحكم العرف والأخلاق والقانون الدولي ملزمة بالتقيد و الإلتزام بما جاء في نصها حرفيا .وأنه على ألكسيس دي توكفيل وهو رجل القانون المتشبع بالنزعة الأخلاقية أن يحث حكومته على الالتزام بمعاهدة التافنة، إلاّ أن واقع الحال أنه ظهر بمظهر مختلف تماما في عمله هذا عن الجزائر عام 1841عندما دعى إلى القضاء على الأمير عبد القادر مستغلا في ذلك الانشقاق بين العرب، حيث دعى إلى:(31)

-استمالة بعض القادة العرب المناوئين لعبد القادر وذلك بإعطائهم وعودا وهبات سخية.

وبالتالي يكون توكفيل قد وظف سياسة" **فرق تسد** " لضرب الأمير عبد القادر وتقويض دعائم دولته واضعا مخططا لزرع بذور الشقاق وإحداث التفرقة بين الجزائريين مستغلا في ذلك بعض قادة القبائل الذين رفضوا الامتثال لعبد القادر أو تآمروا عليه نظرا لجشعهم ولطموحاتهم الشخصية الضيِّقة التي زادت فرنسا في تنميتها والنّفخ فيها .وفي هذا الصدد ينصح توكفيل ..."ألاّ نيأس في استمالتهم إما بالنفخ في طموحهم، وإما بتوزيع المال عليهم(32)".

كما أنه يرى أن الوسيلة الوحيدة للتعامل مع عبد القادر **هي الحرب وليست الدبلوماسية** حيث يقول" :أنا متأكد أنه كان ممكنا قبل أن تولد قوة عبد القادر وقبل أن تتشكل، اللجوء فقط إلى الاستفادة من شهوات العرب بمعارضتهم بعضهم ببعض، ومنع أن يكون أي منهم زعيما، وإبقاؤهم كلهم تحت سيطرتنا بالضبط دون حرب.

فات أوان ذلك منذ وقت طويل، اليوم عبد القادر على رأس جيش قوي وموّحد دائما ...ليس بالإمكان تدارك الوضع إلا بشرطين:

-الأول احتلال مواقع عسكرية تتيح لنا الدفاع بفعالية عن الذين يلتحقون بنا...

-الثاني إعطاء القادة الّذين يرغبون في الاتحاد معنا دعم القبائل التي نفذ صبرها من نمط الحياة التي تفرضه عليهم سيطرة عبد القادر.

لا يتحقق هذان الشرطان **إلا بالحرب**."(33)

ويمضي توكفيل شارحا لفكرته الداعية للاحتلال والاستيطان وتقويض دعائم دولة الأمير عبد القادر وتأكيد خرق فرنسا لمعاهدة التافنة، حيث يرى أنه لا يمكن تحقيق ذلك دون "**إحراق الغلال وإفراغ المطامير**وأخيرا الاستيلاء على الرجال العُزّل من السلاح والنساء والأطفال هذه بالنسبة لي **ضرورات مزعجة**(34) "...

أما حجته في ذلك أن الحرب في الجزائر هي ليست ضد حكومة وإنما هي حرب ضد السكان وبالتالي لا يخضع السكان إلا بضرب **وحرق مصادر رزقهم** :الحقول، المطامير، وشل تجارتهم.

أكثر من ذلك فإن توكفيل يدعو إلى نهب البلد مدّعيا " أن قانون الحرب يسمح لنا **بنهب البلد**، وأنه يمكننا فعل ذلك إما بإتلاف المحاصيل في موسم الحصاد، وإما في كل وقت وذلك بالقيام بهجمات سريعة تسمى غارة والتي هدفها هو الاستيلاء على الرجال أو على القطعان[35]".

كما ينبه توكفيل من خطر إنشاء العرب للمدن لأنها في نظره "ستصبح نقاطا حربية مهمة [36]"...وعليه فـ" : كل الحملات التي يكون الهدف منها احتلال المدن القديمة أو الناشئة وتهديمها، تبدو لي مفيدة [37]".

فبناء على ما سبق فإن توكفيل يرى أن الحرب و الحرب فقط هي الكفيلة بتحقيق المشروع القائم على الاحتلال الكامل و الاستيطان و أن ذلك لن يتحقق دون جيش قوي هو جيش إفريقيا الذي لا يخفي إعجابه به من جهة و تخوفه منه من جهة ثانية، أي أن توكفيل يدعو إلى تكوين قوات خاصة تكون قاسية، صلبة، متكيفة مع مناخ إفريقيا غلى غرار قوات الزّواف أو الزواوة التي يساوي فيلق واحد منها، فيلقين من فرنسا [38]وهذا حتى يتفادى هذا الجيش ارتفاع في عدد المرضى والموتى بسبب التعب والمناخ.

أما ما يحدثه هذا الجيش سواء فيلق الزواف أو جيش إفريقيا شديد المراس المتعّود على الشدائد و قساوة المناخ، المقاوم للتعب والإعياء الشديدين في أواسط المجتمعالجزائري، فإن توكفيل يدرجه تحت خانة "**ضرورات مزعجة لا بدّ منها**"، ذلك أنه بحسبه "**ينبغي اللجوء إلى كل الوسائل التي بإمكانها تدمير القبائل، لا أستثني سوى تلك التي لا تقبلها الإنسانية أو قانون الأمم** Je n'excepte que ceux que l'humanité et le droit des nations réprouvent. »[39]".

والسؤال المطروح بعد استعراض وجهة نظر توكفيل حول الوسائل الواجب استخدامها في الجزائر) إفريقيا كما يسميها في أعماله حول الجزائر (بهدف احتلالها واستيطانها هو:

– ما هي هذه الوسائل التي أضفى عليها الشرعية لضرورات مزعجة؟

من خلال رصد ما كتبه توكفيل في عمل حول الجزائر لعام1841 ، يمكن الوقوف على الوسائل التي على فرنسا أن تقوم بها وهي:

–الحرب بدل الدبلوماسية.

–حرق المحاصيل وإفراغ المطامير.

–أخذ الرجال والنساء والأطفال رهائن.

–تدمير المدن القديمة أو الحديثة و التجمعات السكانية الكبرى لما تنطوي عليه من خطر على الوجود الفرنسي بالجزائر...

هذه الوسائل التي دعى توكفيل حكومة بلاده لانتهاجها في الجزائر بهدف تحقيق الاحتلال الكامل والاستيطان والتي كان يرى فيها أنها مسائل يجب على فرنسا أن تعتمدها لأنها بحسب نظره "ضرورات مزعجة "وبالتالي هي من الناحية السياسية والاستراتيجية مقبولة ما دامت تحقق غاية فرنسا في الجزائر :**البقاء فيه واتخاذها جزءا لا يتجزء من فرنسا**، بل إنه يرى أن فرنسا يجب أن تقضي على الأمير عبد القادر الذي استطاع أن يوحد القبائل الجزائرية تحت رايته و بالتالي فقد وقف في وجه المشروع الاستعماري الفرنسي وهو لذلك يدعو فرنسا "لجعل حياة القبائل المنضوية تحت لوائه لا تطاق، فتنفضُّ عنه"، مستخدمة جميع الوسائل المشار إليها سالفا.

إن توكفيل قد دعى مبكرا ومنذ عام 1828إلى توجيه الحرب نحو الجزائر بعد اليونان[40] والقضاء على قوة الأمير عبد القادر الناشئة وذلك من خلال تأليب زعماء القبائل عليه وشراء ذممهم بالمال ونفخ كبريائهم، بهدف إحداث روح الشقاق بينهم وبين الأمير مما سيؤدي إلى سقوط هذا الأخير[41]كان معجبا بالجنرال لاموريسياروبنظامه "الغزوات[42] Razzias "هذا النظام الذي يعتبر الجنرال بيجو أول من اعتمده بهدف تحقيق الصدمة والانهيار في أوساط الجزائريين المقاومين للاحتلال الفرنسي وذلك من خلال تنظيم هجوم مباغة على القبائل المقاومة وتشتيت شملها ومصادرة أملاكها والاستيلاء على مصادر قوتها وتفريغ مطاميرها وسلب ونهب نقودها ومجوهراتها واختطاف نسائها وأطفالها والقضاء على رجالها وحرق زرعها ...وقد لجأ إلى ذلك بعدما فشل في القضاء على المقاومة الجزائرية بقيادة الأمير عبد القادر،حيث اتسع نطاقها في كل الأقاليم الجزائرية وهذا ما أرهق الجيش الفرنسي وألحق به خسائر فادحة في الأرواح والعتاد، و هو ما جعل الجنرال بيجو يتبنى هذه السياسة:الحرب الشاملة وعملية الإبادة بهدف إنهاء المقاومة باتباع كل الأساليب واستخدام جميع الوسائل بغض النظر عن شرعيتها وقانونيتها وأخلاقيتها.

ورغم إعجاب توكفيل بالأساليب العسكرية التي تبنتها الحكومات الفرنسية المتعاقبة في الجزائر ورغم دعوته إلى إنشاء فيلق يكون على غرار فيلق الزّواف فإنه يكون بذلك قد **شرعن هذه الأعمال والأساليب في حق شعب بكامله**، إذ أن هذه الأعمال مّست الذين قاوموا فرنسا ومن لم يقاوموها، كما مّست الذين اصطفّوا خلف الأمير عبد القادر والذين لم يصطفّوا، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن توكفيل الذي رفض الأسلوب الدبلوماسي في إدارة القضية الجزائرية مفضلا أسلوب الحرب والتدمير والاستيلاء على الأرض ضاربا عرض الحائط القانون و الشرع واحترام المعاهدات التي وقعتها فرنسا مع الطرف الجزائري وعلى رأسها معاهدة الاستسلام في 05جويلية 1830 ومعاهدة التافنة في 30ماي...1837

فنفس المنظّر والموّجه نراه في موضع آخر ينكر على الإدارة الفرنسية في الجزائر أنها لا تحترم قانونا ولا عرفا و لا منطقا مع الرعيل الأول من المستوطنين الذين دعتوكفيل إلى تشجيعهم للاستقرار بالجزائر [43]لأنه حسب نظره **لا دوام لفرنسا في الجزائر إذا لم تستولِ على الأرض قوة وبجميع الوسائل والأساليب المتاحة والممكنة** [44]وما لم توزع وتسلم هذه الأراضي على المستوطنين الذين يجب تشجيعهم للمجيء للجزائر حيث دعى في "**عمل عن الجزائر** "لعام 1841إلى ضرورة تقديم الإدارة الفرنسية لضمانات ينبغي إعطاؤها للمواطنين لتحفيز المستوطنين بهدف الاستقرار في الجزائر من خلال:

- إغرائهم بجمع الثروة.
- مشاركتهم في إدارة شؤونهم العامة.

مذكرا بحقوق الفرنسيين في فرنسا، ذلك أنه في فرنسا لا يوقف المواطن إلاّ بأمر قضائي ولا يسجن إلاّ بمحاكمة، وأن الملكية مضمونة...[45]

كما أنه انتقد القوانين سارية المفعول في الجزائر بعد الاحتلال حيث يرى أن "من هذه القوانين ما يخرج بُعدا من وزارة الحربية دون المرور على مجلس الدولة والباقي مرتجل في مدينة الجزائر من الحاكم العام[46]".

كما أنه يتباكى على تجريد المستوطنين من ملكيتهم تحت طائلة المنفعة العامة أو لشق الطرقات [47]ليصل إلى قناعة مفادها أن الوضع سيّئ للغاية في الجزائر أمام تعسف الإدارة وسلطات الحاكم العام الواسعة إلى درجة أنه قال ":أصرح بكل وعي وبعد ملاحظة ناضجة، أنه إن كان محكوما علي العيش في الساحل الإفريقي، فإنني أفضل أن أذهب للسكن في إيَّالة تونس على أن أسكن في إيَّالة الجزائر[48]".

والسؤال المطروح بعد تعرضنا للانتقادات التي وجهها توكفيل للإدارة الفرنسية في الجزائر وعلى رأسها الحاكم العام بخصوص سوء معاملة المستوطنين والتعسف في استخدام الحق والقانون هو:

-لماذا تغاضى عن حقوق وملكية الأصحاب الشرعيين والأصليين لهذه الأراضي والعقارات والدور ونقصد بهم الجزائريون؟ وهل الحق يكتسب بقوة السلاح؟ بعدماجّردوا منها و طردوا من قبل الجيش الفرنسي ليستولي المستوطنون عليها بمباركة السلطات الفرنسية وتشجيعها لهم.

يجيب توكفيل عن هذا السؤال من خلال دعوته إلى **وضع تشريعان متمايزان** في الجزائر نظرا لوجود مجتمعان منفصلان كثيرا عن بعضهما البعض وهما :المسلمون والمسيحيون [49]بل إنه يبدي ملاحظة مفادها أن عدد المسلمين في تناقص بالجزائر طبعا أمام تزايد أعداد المستوطنين دون أن يحاول – وهو الملاحظ الفطن والنابه – أن يعلل هذه الظاهرة والوقوف عندها.!!

وعموما فإن توكفيل من خلال موضوعه الذي بين أيدينا يكون قد بلور فكرة رئيسية بخصوص التواجد الفرنسي بالجزائر تتمثل في الدعوة إلى احتلال الجزائر و عدم الاكتفاء بالمناطق الساحلية فقط وذلك بإكمال السيطرة على المناطق غير الخاضعة لفرنسا بهدف استيطانها وغرس نواة المجتمع الأوروبي بالجزائر حيث يرى " :**أن نجعل الاستيطان والحرب يسيران معا إذا كان ذلك ممكنا** ."ذلك أن هؤلاء الأوروبيون "**عند إحلالهم سيجعلون الحرب أكثر سهولة وأقل تكلفة وأكثر حسما لأنهم سيكونون قاعدة صلبة لعمليات جيشنا.**[50]"

أما الجهة التي يرى فيها توكفيل أنها الأكثر قابلية في الظروف الراهنة) ظروف تجدد الحرب مع الأمير عبد القادر منذ 1839واستمرار المعارك ضد أحمد باي في القسم الشرقي من الجزائر (للاستيطان فهي ليست المنطقة الغربية حيث "الأحاسيس الأكثرعنفا ضدّنا [51]"ولا المنطقة الشرقية تجنّبا لأي ثورة للأهالي هناك التي "ما إن يظهر الفلاح وراء الجندي حتى يفهموا أن الأمر لا يتعلق فقط بغزوهم بل بتجريدهم من أملاكهم أيضا [52]"وإنما على فرنسا أن تنقل كل مواردها وكل عنايتها ناحية مقاطعة الجزائر ونواحي هذه العاصمة.

أما الوسيلة التي يتم بها الاستيلاء على الأرض في إقليم الجزائر فهي:

- بالغزو.
- بالشراء.
- بنزع الملكية بالقوة.[53]

على ألا يفهم من ذلك أن فرنسا تبقى مكتوفة الأيدي في المناطق التي يسيطر عليها الأمير عبد القادر بل يجب أن تقوِّض دعائم هذه الدولة وذلك باستخدام جميع الوسائل:**الحرب، الحرق، الإختطاف، تدمير التجمعات السكنية الكبرى...**

وبالتزامن مع ذلك فعلى السلطات الفرنسية أن تقدم التسهيلات المادية للمستوطنين قصد تحفيزهم للمجيء إلى الجزائر وأن تشجع العملية الزراعية في هذه المستوطنات وأن تفتح الأسواق الفرنسية للمنتجات الجزائرية حتى لو تطلب ذلك إنشاء جسر من ذهب[54].

3- الوثيقة الثالثة ":تقرير عن الجزائر 24 "ماي:1847

كُتب هذا التقرير من قبل توكفيل باعتباره نائبا بالجمعية الوطنية الفرنسية ومقررا بلجنة القروض غير العادية لإفريقيا)الجزائر (والمتكونة من 18عضوا.

وقد وضع هذا التقرير قبل 7 أشهر من نهاية مقاومة الأمير عبد القادر التي كانت في ديسمبر1847 ، والتي توقفت بمبادرة من الأمير الذي ضاقت به السبل نتيجة للإعتبارات التالية:ا

إنتهاج فرنسا لحرب شاملة مفتوحة مع الأمير عبد القادر بقيادة الجنرال بيجو الذي اعتمد **سياسة الأرض المحروقة والتقتيل الجماعي وحرب الإبادة** بهدف الوصول إلى نتائج حاسمة و سريعة مع المقاومة الجزائرية التي أرهقت القوات الفرنسية وشتت شملها.

أ –استسلام العديد من القبائل الجزائرية لفرنسا نتيجة لهذه الضربات التي قضت على الأخضر واليابس وبالتالي تحولها إلى مناطق متقدمة للجيش الفرنسي في محاربة الأمير عبد القادر.

ب . تحّول سلطان المغرب الأقصى من مساند ومدعِّم للمقاومة الجزائرية بقيادةالأمير إلى مناوئ له متربص به الدوائر وسعيه للقضاء عليه بكل الوسائل والأساليب.

وأمام هذه الأوضاع وضع الأمير سلاحه بشروط أهمها خروجه من الجزائر وتوجهه نحو الإسكندرية أو عكا بفلسطين[55]، و قد استجابت له فرنسا التي لم تصدّق أن الأمير عبد القادر قد وضع السلاح، إلا أنها لم تحترم ما تعهدت به للأمير بعد ذلك، حيث سُجن الأمير في قصر أمبواز بفرنسا وبمختلف مناطقها لمدة 5سنوات، ولم يطلق سراحه إلا عام 1852على يد نابليون الثالث، حيث سُمح له بالخروج من فرنسا والتوجه نحو تركيا ومن ثم إلى سوريا التي توفي بها عام 1883.

إذا فإن "**تقرير عن الجزائر 1847** "جاء في هذه الظروف، ألا وهي ظروف وضع عبد القادر للسلاح مقابل خروجه من الجزائر نحو المشرق **وليس استسلام عبد القادر لفرنسا كما أرادت فرنسا أن تظهره وتشيعه** .فالأمير عبد القادر لم يستسلم لفرنسا وإنما فاوضها للخروج من الجزائر نحو المشرق، فغدرت به فرنسا وهذا بعد أن ضاقت به السبل وتنكر له حلفاؤه) المغرب (وإخوانه)القبائل المستسلمة التي ارتمت في حضن فرنسا (واعتماد فرنسا حرب الإبادة في حق الشعب الجزائري عامة والمقاومين لها خاصة.

إن" **تقرير عن الجزائر** 1847 "يختلف عن" **الرسالة الثانية عن الجزائر**1837 "، و"**عمل عن الجزائر** 1841 "حيث أن الرسالة الثانية1837 ، كتبت بعد توقيع معاهدة التافنة 30 ماي1837 ، حيث كان أسلوبها هادئا، حذرا، يدعو فيه توكفيل إلى توخي الحذر والحيطة في التعامل مع الجزائر، في حين كان أسلوب رسالة عن الجزائر تحت عنوان عمل عن الجزائر1841 ، مختلفا تماما عن رسالة1837 ، حيث غلب أسلوب التهويل والحرب والدعوة إلى استخدام القوة والحرق والتدمير وقد مّر شرح هذه الملاحظات.

أما تقرير عن الجزائر1847 ، فقد وضع في السنة التي انتهت فيه مقاومة الأمير عبد القادر) وليس استسلامه كما عّودنا الخطاب الكولونيالي الفرنسي (.وبالتالي فإن الروح المنبثقة من هذا التقرير هي روح المنتصر المظفر وهذا من خلال تأكيد توكفيل لما يلي:

"خضوع القسم الأكبر من البلاد، بعد حرب قمنا بها ببراعة، وانتهت بانتصارنا [56]".ليقرر بعد ذلك" :**لا نستطيع دراسة الشعوب البربرية إلا والسلاح في اليد** .لقد هزمنا العرب قبل أن نعرفهم .[57]"ليؤكد بعد ذلك أن "المجتمع المتحضر والمسيحي أصبح قائما[58]".

ينقسم هذا العمل "**تقرير عن الجزائر** 1847 "إلى قسمين رئيسيين وهما:

-القسم الأول :السيطرة و حكم الأهالي.

-القسم الثاني :الإدارة المدنية، حكومة الأوروبيين.

والذي يعنينا في هذا التقرير لعام1847 ، هو القسم الأول منه، الذي من خلاله صاغ توكفيل تقريرا وضعه بين يدي الحكومة الفرنسية ضّمنه وجهة نظره وتصوراته حول تحقيق السيطرة التامة في الجزائر بهدف استيطانها وتعميرها بالعنصر الأوروبي هو موضوع القسم الثاني من التقرير.

للتذكير هنا أن توكفيل قد شرع في بلورة مشروعه الذي يستند أساسا على فكرتين محوريتين وهما:

- السيطرة.
- الإستيطان.

حيث أنه كان في تقريره لعام " 1841عمل عن الجزائر " قد نصح بضرورة تحقيق السيطرة بهدف تسهيل عملية الإستيطان أي إحلال العنصر الأوروبي محل العنصر الجزائري من خلال سلب الأراضي عن طريق الغزو أو شرائها بأبخس الأثمان أو بنزعها عن طريق القوة.

وإذا كان توكفيل قد دعى حكومته وجيشها بقيادة الجنرال بيجو في تقريره "عمل عن الجزائر 1841 " إلى التريث في استيطان القسم الغربي من الجزائر حيث المقاومة شديدة والأحاسيس الأكثر عنفا ضدّنا في ذلك القسم، وكذا في القسم الشرقي خوفا من هيجان القبائل الجزائرية في حالة ظهور الفلاح وراء الجندي الفرنسي .و الإكتفاء في الوقت الراهن (1841) بالقسم الأوسط أي الجزائر وذلك بعد تجريد العشائر هناك من أراضيها .فإنه في تقريره عن الجزائر لعام 1847وفي القسم الأول منه دعى حكومته والجيش الفرنسي إلى تجسيد المشروع التالي:

-وجوب الإبقاء على سيطرتنا على إفريقيا بصرامة[59] لأنه كما سبق وأن بين تقرير" **عمل عن الجزائر**1841 "، أنه لا استيطان دون سيطرة.

-تقسيم سكان الجزائر الذين يطلق عليهم توكفيل اسم "**الأهالي** les indigènes " إلى ثلاث مجموعات أساسية) يستند هذا التقسيم عند توكفيل من التقسيم الجغرافي للجزائر هذه المجموعات هي:[60]

أ – سكان **الصحراء** الصغرى :ببدوهم أي أولئك الرُحل غير المستقرين، إضافة إلى السكان المستقرين وهم سكان الواحات.

ب – بلاد **القبائل** المستقلة :والقبائل هم أولئك السكان الذين يسكنون الجبال المقابلة للبحر، وهم مستقلون ولكنهم محاصرون بمؤسسات فرنسا.

ج – **التل** :وهم سكان السهول حيث المدن والعشائر الكبرى من الحدود المغربية إلى الحدود التونسية، وفي هذا القسم توجد أجود الأراضي وأكبر المؤسسات الفرنسية .

–اعتراف توكفيل أن الجيش الفرنسي لم يكن يواجه جيشا حقيقيا منظما على غرار الجيوش الأوروبية وإنما كان يواجه السكان أنفسهم .وهذا ما جعله يبرر مشروعية ضرورة اللجوء إلى مصادرة محاصيل هؤلاء السكان ومصادرة قطعانهم وتوقيف الأشخاص .[61] وحجة توكفيل أنه ما دام أن سكان الجزائر مناوئين لنا واقفين في وجه المشروع الفرنسي، فقد وجب قهر هذا الشعب وتجويعه والإستيلاء على ممتلكاته ومحاصيله.

–إشادته بالمكاتب العربية التي وضع الجنرال بيجو حجرها الأساسي بهدف إنجاح عملية السيطرة .مع توجيه تنبيه للجيش الفرنسي أنه لا يجب أن تسند المهام السياسية للعرب بل يجب أن تبقى في يد الفرنسي على أن تسند السلطات الثانوية للعرب، خاصة أصدقاء فرنسا[62].

اعترافه بسياسة السلب والنهب التي لجأت إليها فرنسا والمتمثلة في افتكاك الأراضي الخصبة من أصحابها الشرعيين وتسليمها للأوروبيين وعدم احترام الشروط المتفق عليها مع القبائل العربية، وغرس فرنسا في ذهن هؤلاء أن ملكية الأرض ووضعية سكانها قضايا معلقة سيتم حسمها بحسب حاجة فرنسا إليها.[63]

–اعتراف توكفيل أن المجتمع الإسلامي في إفريقيا) الجزائر (لم يكن غير متحضر، بل **كانت له حضارة متخلفة** وغير مكتملة، إذ كان يوجد في هذا المجتمع عدد من المؤسسات الخيرية هدفها تقديم المساعدة للفقراء التعليم العمومي، حيث وضعنا يدنا على عائداتها وحوّلناها عن مقاصدها السابقة ...وتخلينا عن المدارس ...**فانطفأت الأنوار من حولنا ليتحوّل المجتمع الإسلامي إلى مجتمع يشتد فيه البؤس، الفوضى، الجهل والبربرية.**[64]

–عدم موافقة توكفيل لنظرية القائلين بأن السكان الأهالي) الجزائريين (أصبحوا غير قابلين للتعلم والإصلاح نظرا لانتشار الفساد بينهم . وعليه يجب حسب هذه النظرية أن يُجرد هؤلاء من أراضيهم وأن يبقوا خاضعين، ولا يتم ذلك إلا باستخدام القوة.[65]

إلا أن الملاحظ أن توكفيل الذي يتظاهر أو يدّعي برفض هذه النظرية وينّدد بها هو في الحقيقة يدعو لها بأسلوب أكثر تهذيبا عندما يعترف أن الحرب الدائرة رحاها في الجزائر هي ليست بين جيش و جيش منظمان أو حكومتان بل هي حرب بين حكومةبجيش، و سكان، وأنه وجب تركيع هؤلاء السكان عن طريق مصادرة ممتلكاتهم ومحاصيلهم وتوقيفهم أو خطفهم...

و السؤال المطروح هو : **ما الفرق بين دعوة غلاة المستوطنين ورجال الإستعمار الذين بّرروا السيطرة واستخدام القوة مع " السكان الأهالي"**؟ نظرا لعدم قابليتهم للإصلاح وانتشار الفساد فيهم على نطاق واسع؟ و بين من دعى إلى اعتماد مبدأ الحرب عوضا عن مبدأ الحل السياسي والدبلوماسي مع السكان الأهالي وحرق محاصيلهم ومصادرة ممتلكاتهم، واختطاف رجالهم ونسائهم وأطفالهم وتدمير مدنهم وأي تجمع سكاني كبير باعتبارهُ مهدّدا للأمن وللوجود الفرنسي في الجزائر؟

– دعوة توكفيل إلى "معاملة الشعوب نصف المتحضرة ...بعدالة صارمة كقاعدة في التعامل مع الأنديجانّ ا يقترفون جُرما في حقنا ."[66]"وهو بعبارة أخرى "لا يمكن إدارة العرب إلا والسلاح في اليد."

من خلال استعراضنا للأعمال الرئيسية لألكسيس دي توكفيل حول الجزائر من خلال ثلاثة وثائق صادرة عام 1837،1841،:1847

فقد تبين لنا أن المفكر والمنظر والنائب والسياسي ألكسيس دي توكفيل صاحب كتاب:

–عن الديمقراطية في أمريكا.

–تاريخ النظام القديم.

قد لعب دورا كبيرا في **شرعَنة** الإحتلال الفرنسي للجزائر، بل إنه ادعى أن السيطرة لا تعني شيئا وسوف تظل ناقصة ما لم تدعم بالإستيطان الذي تفنّن في شرح خطواته وكيفية تحقيقه خاصة في "عمل عن الجزائر1841 "، و"تقريرعن الجزائر 1847 "بقسميه الأول والثاني حتى ولو أدى ذلك إلى استخدام أقسى الوسائل والأساليب، إذ لايهم ذلك ما دام أن الهدف أو الغاية تبر ّر الوسيلة.

–4أدبيات أعمال توكفيل الخاصة بالجزائر:

أ –أدبيات " الرسالة الثانية عن الجزائر: 1837 "

إن الدارس لهذه الرسالة يتبين له أنها تزخر بكم هائل من المصطلحات والعبارات التي تصب في خانة الإنتصار الثقافي والحضاري والديني ويمكن توضيح ذلك من خلال ما يلي:

– بعد انتقاده للإجراءات التي اتبعتها فرنسا في الجزائر بعد دخولها عام1830 ، والمتمثلة في طرد الأتراك و تهميش الكراغلة واستبدال الإجراءات الإدارية)الفرنسية(بالإجراءات)التركية (فإنه ينصح بـ " : بعد أن نعرف اللغة وتصورات العرب المسبقة و عاداتهم، وبعد وراثة الإحترام الذي يوفره الناس دائما للحكومة القائمة يكون مسموحا لنا العودة شيئا فشيئا لإجراءاتنا و طُرقنا، وفرنسة البلاد من حولنا."[67]"

إذا فالهدف بعد **فرنسة البلاد** هو القيام بالأعمال التالية:

-تهديم عدد كبير من شوارع مدينة الجزائر وإعادة إنشائها بطريقتنا و إطلاق أسماء فرنسية على الشوارع التي تركناها قائمة.[68]

-استبدال إجراءاتنا الإدارية بإجراءاتهم.[69]

-جذب **المتوحشين** نحو الإنسان **المتحضر** [70]من خلال تشريعات بسيطة تؤدي بمرور الزمن إلى تغيير الأخلاق والأفكار وبالتالي تفتح الباب لسقوط الحواجز التي تسدُّ علينا منافذ بلادهم من تلقاء ذاتها.[71]

- جعلهم يتعوّدون على رؤيتنا نتدخل في قضاياهم الداخلية وأن يألفونا .[72]وبحسب توكفيل فإنه ليس مستحيلا "ذلك أنه ينبغي حتما تصور أن شعبا قويا ومتحضرا مثل شعبنا يمارس فقط بواقع تفوق أنواره تأثيرا يكاد لا يُهزم على تجمعات بربرية)همجية (تقريبا.[73]"

وعليه فإنه بحسب هذه الرسالة فإن أهم الأوصاف والنعوت التي حظي بها المجتمع الجزائري والفرنسي حسب توكفيل هي:

-المجتمع الجزائري:

-الفوضى والوحشية - حبّ الملذات والشهوات المادية.

-الفوضى العربية.

-قطع الطريق و اللصوصية.

-المجتمع الفرنسي:

-الإنسان المتحضر.

- شعب قوي ومتحضّر.

ب -أدبيات" عمل عن الجزائر:1841 "

- المجتمع الجزائري هو:

- مجتمع قبائل همجية[74]، مجتمعٌ منحط.[75]

- الرجال نصف المتحضرين.[76]

-قبائل نصف بربرية...[77]

المجتمع الفرنسي:

-هو جزء من الأمم المتحضرة في أوروبا.[78]

-العالم المتحضر في سياق حديثه عن مستغانم و هي جزء من المستعمرات في الجزائر عام 1841.[79]

ج –أدبيات" تقرير عن الجزائر) 1847 "القسم الأول)

–لا نستطيع دراسة الشعوب البربرية إلا والسلاح في اليد.[80]

–ينبغي لنا أن نتوقف في احتلال بلد بربري. pays barbare[81]

–المجتمع الفرنسي :المجتمع المتحضر والمسيحي.[82]

يتبين لنا من خلال الأدبيات المستخدمة في الأعمال الثلاثة لتوكفيل أنها تعكس روح المنتصر، ذلك أن تقدم الحضارة الأوروبية يقتضي بالضرورة ابتلاء المسلمينالأصليين بالقساوة و الفضاضات .لقد أصبح الفتح الكلي في نظره معدلا للعظمة الفرنسية.[83]

ولا عجب في هذه النظرة التي يصوغها توكفيل في قالب نمطي، حيث أنه اعتبر الإسلام مرادفا " لتعدد الزوجات، وعزل النساء، وغياب الحياة السياسية غيابا تاما،والحكومات الطاغية الكلية الوجود التي تجبر الناس على إخفاء أنفسهم والبحث عن جميع أوجه الرضا في الحياة العائلية.[84]"

الخلاصة:

بناء على ما سبق يتبن لنا مدى أهمية دور العلماء والمفكرين والمنظرين في شرعنة السياسات من خلال توكفيل كأنموذج :هذا الأخير لعب دورا لا يستهان به في**توجيه السياسة الإستعمارية الفرنسية بالجزائر من خلال كتاباته و أعماله عن الجزائر** سواء كسائح أو مقرر في اللجنة البرلمانية حيث دعى إلى ضرورة الإحتفاظ بالجزائر وتحويلها إلى مستوطنة لإيواء الأوروبيين) المستوطنين (بهدف خلق مجتمع أوروبي في إفريقيا يكون أساس القاعدة الكولونيالية لفرنسا وسندها المتين، وإحلال هذا المجتمع محل" الأهالي "من خلال طردهم من أراضيهم وحرق ممتلكاتهم و تدمير مدنهم واختطاف رجالهم و نسائهم و أطفالهم.

إن للإستعمار أذرع ثقافية، اقتصادية، سياسية، عسكرية...مع العلم أن **العامل الثقافي** عامل يسبق ويمهد الطريق للإستعمار بل ويحث عليه و يبرّره من خلال إيجاد المبرّرات و الذرائع الذهنية، الفكرية والأخلاقية التي يمكن اعتبارها المرتكزات الفكرية والثقافية للظاهرة الإستعمارية.

وعليه فإن الإستنتاج الذي يمكن أن نصيغه بعد التعرض لأفكار ألكسيس دي توكفيل ومناقشتها هو:

– **مدى الترابط العضوي بين العامل الثقافي و العامل السياسي.**

– الدور الذي اضطلع به **المثقف** في شرعنة سلوكيات **السلطة** وتبرير أفعالها.

–الدور الذي لعبته **الثقافة** في تبرير **الإستعمار** وارتباطها بالإمبراطورية " : **لولا الكلمات ما كانت الأفعال** [85]"أي أن المخططات والمشاريع السياسية والإقتصادية)وما ينجر عنها من نتائج وآثار (هي نتاج فكر وتصور ذهني أولا قبل أن تتحول إلى خطة قابلة للتنفيذ.

التهميش:

([1]) إحسان نراغي، **من بلاط الشاه إلى سجون الثورة** ، من مقدمة لمحمد أركون، دار الساقي، بيروت لبنان1993 ، ص 13.

([2])عبد الله يوسف سهر محمد، **مؤسسات الاستشراق و السياسة الغربية اتجاه العرب و المسلمين**، مركز الامارات للدراسات و البحوث الاستراتيجية، العدد 57،الامارات العربية المتحدة2001،ص.12.

([3])نفس المرجع، ص.16.

([4])إدوارد سعيد، **تغطية الإسلام**،) ترجمة محمد عناني (رؤية للنشر والتوزيع 2006 ص 40.

([5])نفس المرجع

([6]) إدوارد سعيد، **نهاية عملية السلام أوسلو وما بعدها**، دار الآداب للنشر و التوزيع، بيروت لبنان2002 ، ص12

([7]) Alexis de Tocqueville, **œuvres complètes**, t5, Paris Michel Lévy, libraire éditeur 1866. p 06.

([8]) Alexis de Tocqueville, **De la démocratie en Amérique** in œuvres complètes, tome premier et second, Paris, Michel Levy frères 1864.

([9])ألكسييس دو طوكفيل، **نصوص عن الجزائر في فلسفة الإحتلال والإستيطان)** ترجمة إبراهيم صحراوي (، الجزائر 2008.

([10])نفس المرجع، ص 10.

([11]) نفس المرجع، ص 16.

([12]) Pellissier de Reynaud, **Annales Algériennes**, tome1, Paris librairie militaire, oct 1854, p 74.

([13]) Ibid, pp 74-75.

([14]) Ibid, p 75.

([15]) Ibid.

([16])ألكسي دو طوكفيل، **نصوص**، ص 22.

([17])نفس الرجع، ص 23.

([18])نفس الرجع، ص 24.

([19])نفس الرجع، ص 25.

([20])روبير آجيرون، **الجزائريون المسلمون وفرنسا) 1871– 1919** ترجمة حاج مسعود و أ .بكلي (الجزء الأول، دار الرائد الكتاب، الجزائر2007 ، ص 506.

([21])نفس المرجع، ص 496.

([22])اسماعيل العربي، **العلاقات الدبلوماسية الجزائرية في عهد الأمير عبد القادر**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر1982 ، ص 23 .

([23])شارل هنري تشرشل، **حياة الأمير عبد القادر**، ترجمة أبو القاسم سعد الله، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1982، ص 181.

([24])ألكسي دو طوكفيل، **نصوص**، مرجع سابق ذكره، ص 33.

([25])نفس المرجع ص 34.

([26])نفس المرجع ص 39.

([27])نفس المرجع ص 40.

([28]) نفس المرجع.

([29])محفوظ قداش، **الأمير عبد القادر الجزائري**، فن و ثقافة، وزارة الإعلام، الجزائر1982 ، ص 23.

([30]) M. Emrit et H.Pèrès, **le texte arabe du traité de la TAFNA**, Revue Africaine n° 94, année 1950, O.P.U Alger 2000, pp 85- 100.

([31])ألكسي دو طوكفيل، **نصوص**، مرجع سابق ذكره، ص 45.

([32])نفس المرجع، ص 46.

([33])نفس المرجع، ص ص.47 - 46

([34])نفس المرجع، ص 48.

([35])نفس المرجع، ص 49.

([36])نفس المرجع، ص 51.

([37])نفس المرجع، ص 52.

([38])نفس المرجع، ص 54

([39])نفس المرجع، ص 48.

([40]) Alexis da Tocqueville, **œuvres complètes**, t5, op cit, p 307.

([41]) Ibid, p 362.

([42]) Ibid, p 364.

([43]) Alexis da Tocqueville, **œuvres complètes**, t9, op cit, p425.

([44])ألكسي دو طوكفيل، **نصوص**، ص ص.71-69

([45])نفس المرجع، ص ص.84 -83

([46])نفس المرجع، ص 85.

([47])نفس المرجع، ص 89.

([48])نفس المرجع، ص 93.

([49])نفس المرجع، ص 101.

([50])نفس المرجع، ص 61.

([51])نفس المرجع، ص 63.

([52])نفس المرجع، ص 64.

([53])نفس المرجع، ص 71.

([54])نفس المرجع.

([55]) Eugène de Civry, **Napoléon III et Abdelkader**, charlemagne et witikind, étude historique et politique, Paris, P. Martinon, libraire- éditeur 1859, pp 230-239.

([56]) Alexis de Tocqueville, **œuvres complètes**, t9, op cit , p 423.

([57]) Ibid, p 424.

([58]) Ibid, p 42.

([59]) Alexis de Tocqueville, op cit, pp 425-426.

([60]) Ibid, pp 426-427.

([61]) Ibid, pp 430-431.

([62]) Ibid, p 434.

([63]) Ibid, p 436.

([64]) Ibid, pp 436-437.

([65]) Ibid, p 437.

([66]) Ibid, p 438.

([67])ألكسي دو طوكفيل، **نصوص**، مرجع سابق ذكره، ص 22.

([68])نفس المرجع، ص16.

([69])نفس المرجع، ص 22.

نفس المرجع، ص ([70]) 23.

.نفس المرجع([71])

نفس المرجع، ص ([72]) 25.

نفس المرجع، ص ([73]) 27.

نفس المرجع، ص ([74]) 33.

نفس المرجع، ص ([75]) 35.

نفس المرجع، ص ([76]) 46.

([77])نفس المرجع، ص 61.

([78])نفس المرجع، ص 41.

([79])نفس المرجع، ص 63.

([80])نفس المرجع، ص 111.

([81])نفس المرجع، ص 117.

([82]) نفس المرجع، ص 112.

([83]) إدوارد سعيد، **الثقافة و الإمبريالية**، ترجمة كمال أبو ديب ، دار الآداب ، بيروت2004 ، ص 242.

([84]) نفس المرجع.

([85]).إدوارد سعيد، **تغطية الإسلام**، مرجع سابق ذكره، ص40